طقس بارد

رواية بلغارية

أنطون ميخايلوف

ترجمها عن البلغارية علي أحمد ناصر

أنطون ميخايلوف : روائي بلغاري معروف من جيل السبعينات من القرن الماضي، عرف بالتصوير الدرامي للشخصية والمكان فصار الوصف عنده ميزة كرسها لحبه جمال الطبيعة الجبلية لمنطقة لهضبة البلقان التي تزرع بلغاريا بأجمل الجبال المكتسية بغابات الصنوبر الرائعة.

علي ناصر: كاتب ومترجم عن اللغتين البلغارية والانجليزية، عضو اتحاد الانترنت العرب، صدرت له ترجمات روائية وفكرية ومجموعتين قصصيتين.

طقس بارد

عاد فراتف Fratev مساء إلى براكته شديد التعب وارتمى على السرير. كان قد هطل ثلج جديد وهناك على الخط الهوائي (التلفريك) تجمعت أكوام من الحطب بعد أن عطل الثلج المتجلد صباحاً أعمال الشحن، وتجمدت الأيدي وتجلدت اللحى غير الحليقة. أما فراتف فما يزال يحس بلمسات الزان، البارد والثقيل، وسريع الانزلاق بين الأيدي.

دفء الغرفة يوهم برائحة الملابس المغسولة، المدفأة تهدر عند الركن ونظرات فراتف حائرة، فقد شعر بالدفء والضجر، زفر ونهض ينظر عبر النافذة، القرية خاوية، لا يوجد مارة في الشوارع، كلب أبيض كبير ذو بقعة سوداء على أذنه اليمنى يقعي قرب البراكة المجاورة، إنه كلب مونيو، كلب كبير مجرب، لا يفوته أي مشهد، يبقى في مقره ليلاً نهاراً على أتم جاهزيته، لم يره أحد نائماً مرة.

" إنه يعاني من القلق – يقول مونيو – وأنا كذلك لم ألحظه نائماً ولو مرة واحدة."

تنهد فراتف، زوجته ماريا في مطبخ الستول (مطعم المصنع) ففي مثل هذا الوقت من كل يوم تذهب إلى هناك كي تجهز مع باقي النسوة وجبات العمال لليوم التالي. كانت أماسي الوحدة هذه تزعج فراتف كثيراً، فعند وصوله إلى المنزل تخرج هي، وأحياناً يلتقيان أمام باب البيت، فيتبادلان كلمتين ثلاثة ثم يفترقان، لكن في معظم الأحيان لا يصادفان بعضهما فيبقى منتظراً عودتها بغضب وعصبية حتى الساعة التاسعة أو العاشرة ليلاً. وهذا وقت كاف ليشعر بالتوتر الشديد ثم لتبرد أعصابه وتعود للتوتر ثانية أو ثالثة.

كان وماريا قد تزوجا منذ سنتين، هي طباخة في مثل عمره في الحادية والأربعين. كروية الشكل وضخمة وذات صوت عال،تعرف عليها فراتف قبل موت زوجها على الخط الهوائي، بقيت سنة في حداد على زوجها المتوفى بالرغم من عرض فراتف الزواج بها بعد شهر واحد، لكن حتى ذاك الحين بقيت كي توافق على الزواج به.

لم يقل لها حقيقة كونه متزوجاً قبلها مرتين اثنتين بل مرة واحدة، كما كان متداولاً في القرية. في المرة الأولى انفصل عن زوجته وهو ما يزال شاباً, تركها حاملاً وطلّقها بعد أربع سنوات ليتزوج بأخرى مطلقة مثله من غوركوفو Gorkovo, كانت تعمل في مصنع للمناشير, لكنه أيضاً لم يستمر معها طويلاً،هذه المرة هي التي انفصلت عنه بهروبها مع مدير مصبغة يمتلك سيارة موسكفيتش ومنزلاً حديثاً, كان قصيراً وهزيلاً, إحدى عينيه تنظر جانباً. شتمه فراتف أمام الناس, لكن الهزيل قاضاه أمام المحكمة التي فرضت عليه غرامة، خمس مئة ليفا، رد اعتبار، دفعها مقسطة على ثلاث سنوات, بقسط مقداره خمسين ليفا شهرياً , وثلاث سنوات من الشتائم وأخيراً دفع كل شيء ونسي امرأته وهزيلها. ولكن بعد شهرين أو ثلاثة علم أن مدير المصبغة قد أدين في المحكمة لسوء النزاهة والأمانة مما دفع فراتف لدعوة جميع أصدقائه لاحتساء مشروب بهذه المناسبة.

"احتسوا نخب ذلك القذر (صاح بأعلى صوته وهو يرفع كأس الراكيا للأعلى في محطة شحن الأخشاب) لم يكتف بسرقة زوجتي فالقذر قذر , لقد مد يده الطويلة على أموال الدولة.... يستحق ذلك ! بيت حديث وسيارة موسكفيتش و .....! "

راقب الحمالون حركات فراتف وضحكوا كثيراً.

كان فراتف شخصاً عنيفاً لا يستقر في مكانٍ واحد. بدَّل أماكن عمله مرتين أو ثلاثة لكن ماريا ربطته كأي امرأة من غابروفو Gabrovo.

"لن تتحرك من هنا (خاطبته بحزم يوم العرس) سوف نجمع المال وبعد ذلك سننزل إلى المدينة ".

كانت تملك ألفي ليفا Leva من زوجها المرحوم وجمعت ألفين أخريين خلال هاتين السنتين من الراتب و المكافآت، هذه الأربعة آلاف جميعها وضعاها في المصرف من أجل قرضٍ سكني .

ضبطته ماريا بقوة. عدت له الستوتينكات (القروش) , ولم تدعه يخرج من البيت. اعترض في البداية لكنها هددته بأنها ستتركه فاستسلم لها . إه , كان ينجح أحياناً بإخفاء بعض الليفات لكن ذلك لم يكن كثير الحدوث ....

نظر فراتف إلى ساعة المنبه على الكمودينة. الوقت ما يزال مبكراً, الوقت مبكر لعودة ماريا. سيجن قبل ذلك. قرر أخيراً: "سوف أمر على كاتسا " . ارتدى سترته القطنية و وضع قبعته الجلدية التي تغطي أذنيه ثم خرج من البيت .

كان الطقس بارداً. أحس به يلدغ أنفه. كلب مونيو ما زال مرابضاً أمام مدخل البراكة المجاورة دون تذمر من البرد. ضوء المصابيح الكهربائية يلهو على الثلج, برم فراتف رأسه هنا وهناك، عدَّ بيده ما بقي من الليفات الستة وركض نحو الحانة. حلقه جاف، أحس بعطش شديد لزجاجة من النبيذ الذي يصبه كاتسا مدير الحانة مباشرة من الدن الخشبي المصنوع في سكوبي، يفضله فراتف على جميع الأصناف الأخرى من النبيذ ويحتسيه مع السمك الطازج المملح الذي كان كاتسا يؤمِّنه خصيصاً لفراتف بطريقة ما منذ زمن طويل قبل زواجه من ماريا .

يوجد في الحانة رجلان فقط . يجلسان في أحد الأركان ويتحدثان بهدوء. أحدهما قصير ماكر بعيني ثعلب, أما الآخر فقد كان أطول منه بقليل, ممتلئ الجسم بوجه طيب. لا يوجد آخرون. لا كاتسا ولا زوجته ولا تلك العجوز التي كانت تخدم في الحانة. لم ير أياً منهم. لا شك أنهم في المطبخ. حيث اعتادوا المكوث في مثل هذا الوقت, من أجل تناول طعام العشاء.

جلس فراتف على كرسي صغير قرب البار. كانت الحانة إحدى الأبنية الحجرية القليلة في القرية. نوافذها واسعة ذات إطارات حديدية وتتم التدفئة فيها بوساطة مدفأة ذات وقود نفطي، بالرغم من تعثُّرك هنا في كل خطوة بغصن أو بعود من الخشب! يوجد على الجدار الشمالي للحانة لوحة رسم فيها الخط الهوائي (تلفريك شحن الحطب والأخشاب) وشاحنة ومقطورة تحملان شحنة كبيرة من الأخشاب. هناك بعض الحمالين أيضاً بستراتهم القطنية. كل شيء هنا مرسوم بالأخضر حتى الطائر الصغير الذي يغط على غصن فاتحاً منقاريه و كأنه يغني أعذب الألحان .

كلن فراتف يحب النظر إلى هذه اللوحة لأن أحد الحمالين فيها كان يشبهه كثيراً. كان كبير الحجم والمقدرة وله وجه واسع النظرات المتأملة .

قال لنفسه : "رسموني أنا هنا , ليس أحداً آخر . أنا الوحيد الذي يشبه الصورة."

استحسن فراتف اللوحة كلياً. إلا أن صورة الخط الهوائي لم تعجبه. تراءت له كحبل غسيل مشدود، فلا الحبل حبل، ولا العربات تشبه تلك المعلقة في الأعلى. لم يعطه هذا الجزء من اللوحة أي إحساس. فالعربات المرسومة أشبه بقطعة مكسورة من عربة منطاد تكاد في لحظة ما أن تفرغ حمولتها على الحمالين لتطحنهم تحتها. بدأ فراتف يرتجف وهو يتصور الأمر يقع معه.

فتح باب جانبي ودخل كاتسا بشكل احتفالي إلى الحانة. كان قصيراً سميناً ذا رأس عار. لذلك أطلقوا عليه اسم كاتسا (كاسكيت). أحد السائقين اخترع هذا الاسم، وبقي عليه حتى الآن. قلائل جداً يعرفون اسمه الحقيقي. يسير نافخاً صدره وكأن شيئاً ما يشده للخلف أو في بطنه شيء ما مقدس .

- أوه , تسوتشو , أهلاً وسهلاً . الحانة تشع من بعيد. (قال ذلك وعيناه الدائريتان مليئتان بالضياء.) ماذا جرى لك ؟ نادراً ما تأتي إلى هنا. هل يغلقون الطريق بينك وبين المسقى؟ يبدو أنه علينا كتابة رسائل في هذه القرية. (تقدم ومد يده ليصافح فراتف.) كيف حالك؟ ماذا تفعل هذه الأيام؟
- جئت لأشرب زجاجة نبيذ أسود، هل ما يزال لديك من ذلك النبيذ السكوربي؟
- مع السمك السكمري الطازج والمملح؟
- بالضبط تماماً.
- لم يعد لدي البتة، لقد أوقفوا خدمة التوصيل، لدي سمكاً مقلياً من المحيط، وصل قبل ساعتين، ألم تشتمَّ الرائحة؟
اشتمَّ فراتف الهواء ولم يحس برائحة سمك.
- لا.
- أنفك متجمد إذن بفعل الطقس البارد في الخارج.

ابتعد الخمَّار واختار زجاجة نبيذ أسود ثم فتح باباً جانبياً وصاح بصوت عال:

" وجبة سمك مقلي لتسوتشو؟"

وضع الزجاجة أمام فراتف، فتحها وسأله إن كان يريد شيئاً آخر ثم غادر نحو البار. في تلك اللحظة فتح الباب الجانبي وخرجت منه فتاة ممتلئة الجسم طويلة القد ذات وجه جميل ونهدين حارين وشعر أسود طويل.

ظن فراتف أن كاتسا قد استبدل النادلة، ثبت نظره فيها:

" يا لها من فاتنة الجمال، إن ذاك العجوز لا يشبهها بشيء."

نظرت النادلة نحو مديرها مستفسرة فأومأ لها نحو تسوتشو، فتقدمت من فراتف ووضعت وجبة السمك الساخن المدخن على طاولته:

- تفضل، هل تريد خبزاً؟
- قطعتين.

أحضرت النادلة الخبز بسرعة ووضعته أمامه ثم سحبت كرسياً وجلست قبالته.

- هكذا إذن، تأتون إلى الحانة فرادى، واحداً، واحداً فقط - (تنهدت الفتاة بضجر) لقد غابت الشمس منذ وقت طويل وما تزال الحانة فارغة، بصعوبة بالغة تتقاطرون!
- لسنا في مدينة هنا يا صغيرتي، هنا يعود الناس عادة متعبين، التعب كبير عندنا فهذه المرتفعات ليست سهلة.
- أنا لم أعمل من قبل في المدينة. قالت الفتاة.

سألها فراتف باهتمام:

- أين كنت تعملين إذن؟
- في مشاريع البناء، لا يوجد مشروع بناء في المنطقة لم أشتغل فيه.
- هذا يعني أنك كنت تبدلين المواقع كما تبدلين مناديل الأنف.
- يمكنك قول ذلك.

صمتت النادلة قليلاً وهي تبحث بعينيها عن شيء ما في المكان وفجأة قالت:

- أبحث منذ زمن طويل عن شخص قذر لكنني لم أعثر عليه.

فتح فراتف عينيه باتساع ثم حدق بمساعدة كاتسا الجديدة التي استطاعت اجتذابه.

- هل هو بعمرك أم هو رجل؟
- لا هذا ولا ذاك. (طوت الشابة حاجبيها الأسودين) أبحث عن أبي، لو رأيت شاربيه لبصقت عليهما، مع العلم أنني لا أعرف شكله، أبيض أم أسود اللون.

ارتعش فراتف، ضربته نسمات باردات. تذكر أنه ترك زوجته الأولى حاملاً في الشهر السادس، دون أن يكترث بمولودها ذكراً كان أم أنثى. حدق بالموظفة الجديدة الصامتة وكأنه قد وجد شيئاً ما منه فيها.

القد الضخم، الأكتاف العريضة، الأنف الكبير،والعينين! تعرق بشدة، دارت في مخيلته فكرة، هه. سكب لنفسه:

" قد تكون ابنتي.....كما أراها..."

احترق بلعومه، توجه بجسمه نحوها وسألها:

- إيه، وهل وجدته؟
- وهل يمكنك الإمساك بالريح؟ ولكن إن عثرت عليه...! (أجابت الفتاة بعصبية) لقد هرب إلى مكان ما، لقد كان سكيراً لعيناً، لم يكن يعود إلى المنزل قبل أن يصرف راتبه كاملاً على المشروب.
- بريه، بريه (تمتم فراتف وحرك ركبتيه المتخشبتين فجأة)

كان كلام الفتاة صحيحاً وينطبق عليه حتى تعرفه على ماريا، إذ كان يشرب كثيراً، ويتنقل من خمارة إلى أخرى،ليلاً ونهاراً، فقد كان يعتبر الخمارات أفضل من بيته، وأخيراً سألها بصوت متحفظ وخافت:

- وهل أتيت إلى هنا من أجله؟

- آه، لا (شعرها الأسود الطويل يلعب على كتفيها) تركت البحث عنه، فليذهب إلى الشياطين إذا كان حياً، لم أعد بحاجته، جئت مع زوج المستقبل إلى هنا، إنه سائق شاحنة، اسمه راتشو كوليف.
- لا أعرفه، قد يكون من السائقين الجدد الذين جاؤوا مؤخراً.
- بالضبط كما تقول، جئنا إلى هنا لجمع بعض الليفات، وسنعقد زواجنا في عيد الطريفون.
- جميل، جميل جداً.

ظن فراتف أنه ليس من السيّئ أن يسألها عن اسمها ومن أين هي. وعندما فكر بذلك تعرق:

" قد يكون أمراً بلا معنى، ففي الحكايات فقط يمكن للمرء أن يجد ابنه المفقود."

في هذه اللحظات دخل زبائن آخرون فاتجهت الفتاة نحوهم. راقبها وهي تبتعد، رأى في شكلها وطريقة سيرها شيئاً منه. إنها تمشي بخفة كما يمشي هو.

كانت والدتها تنام من التعب والانتظار، لا تعرف متى يعود إلى المنزل ليلاً. ها هي الفتاة تميل برأسها نحو اليمين كما يفعل هو، وذلك كفيلٌ بإقناعه نهائياً بل وبإسقاطه عند نفير الحقيقة.

سرت في جسده قشعريرة وحرارة غير اعتيادية، خفقت روحه، فصب كامل اهتمامه على ابنته التي وجدها، " إنها هي، جلدي ينتفض" اختلطت أفكاره بعضها ببعض، وانتبه من جديد لحركات الفتاة التي اختفت للتو داخل مطبخ الحانة.

بقي النبيذ والسمك أمامه دون أن يلمسهما، فتحت رائحة السمك أنفه، صب كأس نبيذ واحتساه دفعة واحدة، جرب السمك وعاد يفتش بنظره على النادلة، لقد عادت إلى الصالة، وها هي تتحدث مع زبائن جدد، إنهم من الحمالين الذين يعرفهم. حاول الإنصات علَّه يسمع شيئاً من حديثهم. كانوا يتحدثون عن الطقس. قالت لهم أن الشتاء دافئ في بلدها، وأن الثلج لا يصمد هناك كثيراً.

" إنه فعلاً كذلك، (وافق فراتف بصمت،) الشمس عندنا قوية، حتى في فصل الشتاء تدفئنا."

التفت إلى الزجاجة، لم تشده، فقد رغبته بالشراب، جذبته الفتاة، اهتمامه يزداد بها أكثر فأكثر، أراد أن تعود وتجلس إلى طاولته لإنهاء الحديث الذي بدأته معه، فقد كان باستطاعته العثور على أي شيء في فمها عن والدتها، وعن حياتها في القرية، لكن الفتاة نسيته، إنها تهتم بعملها فقط وها هي تتحرك من هنا إلى هناك وإلى المطبخ.

فقد فراتف صبره فاتجه نحو البار وهو ينادي بأعلى صوته:

- كاتسا، كاتسا! الحساب.

ترك المدير عمله وأسرع نحو فراتف، فوجئ بالزجاجة لم تحتسَ، وبالوجبة لم تؤكل فرفع حاجبيه:

- أنت؟ ماذا حصل لك؟ أليس لديك شهية؟
- لا أشعر أنني بخير (أجابه فراتف وسأله فجأة:) ما اسم موظفتك الجديدة؟ لاحظت أنها ذكية جداً.
- اسمها فيلا VELA، فيلا.. (فكر كاتسا بشيء ما ثم تابع:) غورديفا، نعم فيلا غورديفا، يبدو أنني لم أعد قادراً على تذكر الأسماء.

- وهل هي جيدة في العمل؟
- جيداً جداً (لمعت عينا كاتسا بالرضا) تعمل بشرف وهي شريفة جداً، امرأة في مثل سنها وبهذه المواصفات لم نر مثلها منذ عشرين سنة، إنها لا تعرف التعب.
- من أين هي؟ هل تعلم؟
- نعم، أعلم، وكيف لا أعلم من هي، حكت لي كل شيء فور مجيئها وكأنها كانت تحكي لوالديها، إنها من خليابوفو، توجد قرية كهذه في سليفين، في منطقة يامبول. لست أذكر بالتحديد، هرب أبوها من البيت عندما كانت أمها حاملاً بها، يا له من وغد كبير.

رفع فراتف رأسه، لكن عينيه بقيتا معلقتين بعجب بالأرض. "إنها تحمل اسم جدتها" تمتم بقلق مع نفسه، " كانت جدتها مشهورة في خليابوفو لأنها حفرت بيديها قبر زوجها عام ثلاثة وعشرين وتسع مئة وألف، وقد وقفت أمام رجال الشرطة وهي تصيح بهم: " هيا أطلقوا النار علي أيضاً، ألا تجرؤون!"

دفع فراتف الحساب وخرج. السماء المظلمة مضاءة بنجوم كبيرة. نهشته الريح دون رحمة, "الطقس بارد" تمتم ومشى بلا هدى, تمزق حذاؤه على الجليد المحطم فقد كان يكسر به الثلج المتجمد دون أن يسمع صوت التكسير بسبب أفكار كثيرة تعبر خياله.

توقف فراتف أمام المخزن الشامل أخذته نشوة الأبوة والحنان فشعر بالهيجان. لم يكن قد جال في ذهنه أن طليقته موجودةُ في قرية من قرى يامبول. ببساطة كان قد مسحها من ذاكرته لأنه لم يعد يراها أو يفكر بها أو يذكر أنها تحمل ثمرةً منه. عند الطلاق لم يتم ذكر الطفل, وبعد ذلك لم يطلب منه أحد أية نفقة أو اهتمام يذكره بوجود ابنٍ له. أما هو فلم يكن يحب التفكير بالماضي فهو يعيش ليومه, فخوراً ومستقلاً حتى لقائه بماريا زوجته الأخيرة.

أعاده حضور فيلا أعواماً للخلف، فتذكر كل شيء , في حانة كاتسا لم يستطع تذكر شكل أم فيلا أما في الشارع في ذاك البرد القارس فقد طافت في وعيه تلك القرية حيث قابل كيرا, كان وقتذاك شاباً يعمل في مصنع الجرارات في خليابوفو. وقبل أن يتم أول شهرين في العمل وليس أكثر من ذلك.

كان ينام مع زملائه الحمالين ولم يكن يغير طريقه, نفس الطريق, المصنع فالشقة التي تبعد مئة متر عن مركز الصيانة ثم خمارة القرية.

كان يقضي قسراً ثماني ساعات في المصنع، أما الساعات التي يقضيها في الخمارة فهي غير محسوبة لأنه كثيراً ما كان يذهب إليها مباشرة من العمل ومنها يعود إلى العمل.

كان الفرن ملاصقاً للخمارة في ذلك الوقت ومنه يرسل الخبز مباشرة إلى المدينة.

شاهد مرةً فتاة في التاسعة عشر من عمرها, قصيرة, ذات ضفائر مشدودة وعينين خضراوين براقتين، ترتدي تنورةً قطنية من البفتة وسترة صوفيةً خضراء اللون، تمشي بخطواتٍ سريعة حول الفرن ثم تدخله. لم ينس فراتف مراقبة الفرن من الداخل حيث الفتاة توليه ظهرها حيناً وقد تلمع عيناها نحوه حيناً آخر فيتلمظ ويتابع طريقه دون تفكيرٍ كبير بها.

عبر بوابة الفرن ذات مرة وألقى نظرةً كالعادة من الباب نحو الداخل, ظلام المساء يكسو المكان, على طاولة الخبز رأى ساقين عاريتين, ساقي كيرا وقد تسلقت عالياً لتستبدل المصباح الكهربائي, تنورتها المشدودةً للأعلى أظهرت ركبتيها البيضاويتين.

عندما رأته كيرا صرخت :

- هيا أدر المفتاح لأرى إن كان المصباح يضيء أم لا, جربت واحداً ولم يضئ , لعل هذا ....

أدار مفتاح الإضاءة وعم المكان ضوءٌ أصفر قوي. "ثبتي المصباح جيداً " نصحها وعاد يركز نظره على ركبتيها اللامعتين تحت الضوء.

شدت كيرا المصباح فتوقف تقطع الإضاءة, أرادت النزول عن الطاولة فبحثت عن المكان المناسب لكن فراتف تقدم نحوها :

- انتظري, سأساعدك على النزول .

أطفأ النور وأقترب منها وضم ركبتيها فصفعته بكفها, لكنه لم يتركها بل حملها ووضعها على الأرض خلف طاولة الخبز ودفعها واستلقى فوقها. صرخت كيرا وحاولت النهوض لكنه أطبق عليها كالكماشة. عندما انفصلت يداه القويتان المتينتان عنها وتركها تكومت كيرا على كرسيٍ في الزاوية وهي تبكي.

- آه يا أمي، ماذا أفعل الآن ؟

وقف محملقاً بها بعد عودته لوعيه، سيحكم عليه إذا صاحت كيرا ولن يكون الأمر سهلاً أبداً.

ألتفت نحو البوابة وفكر بالهرب لكن رجليه لم تقويان على حمله. نهرها قليلاً:

- هيّا , الأمر غريب !

رفعت كيرا رأسها ومسحت دموعها بكمها ونظرت بعينين خائبتين:

- أمامك أمران : إما الزواج بي أو سأحاكمك. لا تظن أنني سأتركك وشأنك.
- هكذا إذن ؟
- طبعاً, هكذا.

ابتسمت بسخريةٍ ثم وقفت مثل ديكٍ. كانت صغيرةً بحيث لو قرر لقتلها كما يقتل حلزوناً على الأرض بضربة واحدة براحة يده وليس أكثر من ذلك. فكر بعد ذلك وأيقن أنها على حق. اقترب وصار فوقها:

" وأين يتم ذلك ؟"

أراد النوم مع زملائه كالعادة بالرغم من حلمه ببيتٍ صغير يمتلكه فهو مذ وعى على الدنيا لم يعرف شيئاً يمتلكه لنفسه، تململ قليلاً محاولاً متابعة كلامه :

- بما أنك تريدين الزواج فلا مانع لدي .

تزوج في أول يوم أحد دون أن يشعر بأي فرق أو أية مسؤولية. بدلاً من النوم عند أصدقائه كان ينام عندها أما أفكاره عن بيته الخاص فصارت مجرد كلام فارغ. توجه الثالوث الآن في اتجاهٍ

واحد فقط , سقط النوم في المصنع وصار في بيت كيرا حيث تعيش مع أمها الأرملة إثر الحرب ومع جدتها فيلا الأرملة مرتين. مرةً عام ثلاثة وعشرين وتسع مئة وألف والمرة الثانية في عام تسعةٍ وثلاثين . أما الخمارة فبقيت المكان الأفضل بالنسبة له.

جال فراتف بنظره على البراكات السكنية المطمورة بالثلج. من خلف نوافذها المنخفضة كانت تُسمع بعض الأصوات, وعلى الثلج المتجمد تتساقط بعض الشرائط الضوئية الذهبية الطويلة, دخان الشاحنات يرتفع ببهجةٍ رغم البرد الشديد والقرية الحراجية حية. أراد أن يرى ابنته مرةً أخرى ولو عن بعد, لو استطاع رؤيتها لقدر ذلك كثيراً, ألا يكذب على نفسه. صحيح أن كل شيء بدا متطابقاً ولكن .....؟

عاد أدراجه للخلف لكنه لاحظ من بعيد أن شدة الإضاءة في الحانة هي أضعف مما كانت عليه من قبل, يبدو أنه لا يوجد زبائن مما جعل كاتسا يغلق حانته. اقترب أكثر فسمع بوضوح صوت مدير الحانة :

- إذا كنت خائفة يمكنني مرافقتك إلى منزلك .
- أنا أخاف ! اذهب أنت ونم. أجابته فيلا

وخلال ثوان كان صوت أقدامها يرتفع على الجليد المتكسر تحتها, أما فراتف فتنحى جانباً كي لا تراه, اختبأ خلف إحدى الزوايا وانتظر كي تمر. كانت ترتدي سترة قطنية وتضع شالاً أبيض على رأسها تضغط أطرافه على صدرها بيدها. تبعها فراتف بحذر ملاحظاً تشابه خطواتها مع خطواته فأيقن ثانيةً: " إنها طفلتي "

وخفق قلبه بقوة: "اهتم بشأنك !" لكن شيئاً واحداً عبره كخيال، "من الأفضل لو أنها ابناً ولكن لا يهم فليس من السيئ أن تكون لديك بنتاً ."

تبع فراتف ابنته حتى وصلت إلى بيتها، إحدى البراكات المخصصة لعمال النقل , غير بعيدة عن تعاونية الغابة , انتظر قليلاً حتى يتأكد من وصولها وعندما سطع نور إحدى النوافذ في النهاية اليسرى للبراكة انطلق ببطء عائداً إلى براكته .

*

كان الظلام ما يزال دامساً عندما فتح عينيه, إنارة الغرفة زرقاء باهتة تظهر بوضوح الأشياء القريبة. ماريا نائمة قربه وقد أحس بدفء ظهرها القريب. في الحقيقة لم يستطع النوم، قضى الليل نصف نائماً وكأنه قد شرب قهوةً قويةً مما جعله يفكر أن كل شيء رآه في الحلم وعبر رأسه كان حقيقياً. فقد تحدث مع ابنته كما فعل بالأمس، كم كانت قريبة منه حتى أحس بأنفاسها, تحدث وخشي في لحظةٍ ما أن يصرخ: " أيتها الفتاة أنا أبوكِ " ثم يضمها بشكلٍ عاصف. لكنه لم يفعل. جلس بهدوء يرتجف لأنه رأى وجهه في وجه فيلا. بعد ذلك تحرك ليبحث عن خطيب ابنته. جرى من سيارةٍ إلى أخرى, كان يتسلق كبائن الشاحنات ويسأل بلا انقطاع:

" من هو راتشو كوليف خطيب فيلا ؟"

أجابه رجل عجوز: " أنا هو – ما الأمر ؟ "

حدق به فراتف برعب, هل هذا العجوز اللعين هو رَجُل فيلا ؟ أدار ظهره وهرب. ومن يعرف كم كان عليه الركض لو لم يسمع خلفه صوت النادلة:

"بابا , لماذا تركض أنا هنا؟"

توقف وشاهد فيلا. كانت تجلس على سلم الحانة, ناضجة جميلة وقد نثرت شعرها الطويل على صدرها, حدق بها فراتف بلا وعي, في أذنيه ما زالت ترن كلمتها " بابا " وسألها:

- إذن تعلمين أنني أبوكِ ؟
- نعم , بالطبع أعرف ذلك منذ زمن بعيد .
- ولماذا لم تتصلي بي من قبل ؟
- انتظرتك حتى تتذكرني وتأتي إلي, انتظرتك طوال حياتي،وكلي ثقةً أنك ستبحث عني في يوم من الأيام.
- لم أكن أعرف أنك قد ولدتِ.
- آه ... لا تعرف ! هذا لأنك ستعيش بدوني بسهولةٍ أكبر.

اقترب منها، لكن فيلا اختفت فجأةً, أحس بالبرد واستيقظ .

- لماذا تتحرك كثيراً ؟ صدمه صوت زوجته, فأجابها :
- لا أستطيع النوم .
- بما أنك لا تستطيع النوم أوقد المدفأة.

نهض ونظر بساعته ثم توجه نحو المدفأة, كانت الساعة الرابعة والنصف, اشتعلت نار المدفأة بسرعة وانتشر دفءٌ جميل في الغرفة .

جلس فراتف على كرسي صغير ووضع رأسه على كفيه، أحس بثقل رأسه الكبير، شيء ما داخله لا يستقر ولا يهدأ، عاد من جديد إلى لقاء الأمس مع فيلا، تساءل لماذا ترك أمها، لم يستطع تحديد جواب واضح ومقنع، لا يعرف، ببساطة ضاع كل شيء في طين ما، ظهرت صورة زوجته أمامه، كان قد نسيها تماماً، حاول جاهداً تذكر الزمان، هل كان ذلك عام ستة وخمسين؟ لا، لم يكن عام ستة وخمسين وتسع مئة وألف، لأنه أنهى خدمته العسكرية في تلك السنة، قد يكون الأمر قد تم عام ثمانية وخمسين إذن، نعم في عام ثمانية وخمسين، وهذا يعني أن فيلا ولدت عام تسعة وخمسين. خلال الصيف تم الزواج بأمها، انظر، كم كان الطقس حاراً، وكم كان يمقت الطقس الحار، فالحرارة العالية تدخل الجنون إلى دمه، فيدب فيه القلق وتشعل فيه عطشاً لا يحتمل، لذلك لم يكن يطيق الخروج من حانة خليابوفو حيث توجد كافة المشروبات الباردة المطلوبة وبشكل دائم. إذن ، إذا كانت ولادة فيلا عام تسعة وخمسين وتسع مئة وألف فعمرها الآن سيبلغ الواحد والعشرين. فتاة بالغة في عمر الزواج، كانت والدتها اقل منها الآن عمراً عند عقد قرانه معها، لعل خطيبها شاباً مؤدباً وإذا لم يكن كذلك سيفك رقبته فوراً، لن يتردد بذلك لحظة واحدة. تذكر أن فيلا قالت أن اسمه راتشو كوليف وهو سائق. فنهض واقفاً وارتدى ثيابه بسرعة.

كانت الشاحنات ترتب في صفوف متوازية لقضاء الليل في ساحة مستوية. شيء عجيب أن تجد في هذا البلقان، منطقة مستوية وسهلة كهذه، حتى البلدوزرات الضخمة لم تكن لتستطيع تسوية منطقة واسعة بهذا الاستواء العجيب.

أراد فراتف البحث عن خطيب ابنته هنا، لكنه للحظة خشي أن يكون كل ما يفكر به وهماً بوهم، لا، الأمر يخص مستقبل ابنته فيلا ومستقبله هو أيضاً.

" لن أسلم ابنتي الحبيبة والوحيدة لأي كان من الرجال."

- أين تذهب؟ سألته زوجته عندما شاهدته يرتدي سترته القطنية.
- وعدت مونيو بالقيام بخدمة له. كذب عليها.
- هيا قف مكانك. تساعد مونيو؟ ولماذا؟
- لأنه صديق.
- صديق! ثرثار وسكير، من الأفضل لك أن تجد سماً وتقذفه لكلبه، دوماً ينبح علي ويرعبني، سيقطع يوماً ما سلسلته ويعضني.
- إنه كلب طيب.
- طيب! وعندما يشاهدني يهيج علي؟
- إنه بالتأكيد يخاف منك.

رفعت امرأته رأسها ورمقته بغضب مفضلة السكوت. لا ترغب كثيراً بالثرثرة عند الفجر، فاندست ثانية تحت اللحاف الزهري وغطت رأسها جيداً، ثم حركت قدميها وجسدها فالتفَّ اللحاف حول باقي جسمها، وسرعان ما ارتفع شخيرها. أما فراتف فخلع ملابسه واقترب ثانية من المدفأة، لكنه لم يحتمل الجلوس كثيراً فنهض وسحب سترته القطنية وقفز خارجاً قبل أن يتم ارتداءها، كان الطقس أكثر برودة مما كان عليه ليلاً، ظهر خطم كلب مونيو من بوابة كوخه الصغيرة، شعر فراتف بنظراته الحادة، " هل أستطيع تسميمك؟" تساءل وهو يتابع طريقه أمام الكلب.

نافذة مبنى المراقبة ما تزال مضاءة، ركز فراتف نظره فيها، أحدهم يتحرك قرب المدفأة.

- ما الأمر؟ ألا تريد الاشتعال؟ سأل فراتف وهو يدخل الغرفة.
- لا تريد، منذ أكثر من نصف ساعة وأنا أحاول، وكأنني ألعب!

كان الشاب الذي يبلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً يجلس القرفصاء قرب المدفأة، وعندما فهم فراتف أنه من السائقين الجدد شعر برجفة لظنه أنه قد يكون خطيب ابنته.

- دعني أجرب دوري، لدي كما أظن خبرة جيدة في هذه الأمور.

ترك الشاب مكانه لفراتف الذي أخذ سكينه وبدأ يصنع أعواداً صغيرة من الخشب، وبعد عشر دقائق كانت النار تشتعل بفرح في المدفأة وتدفئ الهواء المحيط.

- لماذا أتيت باكراً جداً إلى هنا؟ سأل فراتف وهو يجلس قرب السائق.
- إنها مناوبتي اليوم، فكل فجر يأتي أحدنا ليشعل المدفأة كي يكون المكان دافئاً عند قدوم باقي السائقين. يأتي الدور مرة كل عشرين يوم، إنه ليس بالعمل الشاق. وأنت! ما الذي أتى بك إلى هنا في هذا الوقت؟
- إيه يا بني، (هز فراتف رأسه) لدي عمل، عليَّ إنجازه على رصيف الشحن تحت المظلات، فقلت لنفسي لماذا لا أذهب مع إحدى سياراتكم، أظن أن سائقاً يدعى راتشو كوليف سيذهب إلى هناك اليوم.

كذب فراتف كذبة كبيرة!

فكر السائق قليلاً وقال:

- ربما! لا يوجد أحد منا يعرف مهمته مسبقاً، يجب أن تنتظر.

حدق فراتف به بحرص وقال:

- سوف أنتظر، أظن أن راتشو كوليف هذا من السائقين الجدد، فأنا لم أسمع باسمه قبل ليلة الأمس.
- إنه شخصية هامة. ألا تقرأ الجرائد؟
- وهل توجد جرائد هنا؟
- في الصيف الفائت كان يعمل في مجمع إنتاجي ضخم وأصبح بطل إنتاج على مستوى المحافظة ومنذ ذلك الوقت صار مشهوراً.

تذكر فراتف حلم البارحة فسأل:

- هل هو شاب من عمري؟
- بل هو شاب في الرابعة والعشرين ويصغرني بسنة واحدة.
- برافو، برافو، (تمتم فرتف بهدوء وتابع) من النادر مصادفة شاب في مقتبل العمر مميز وجيد ، برم على كرسيه يميناً وشمالاً، صر الكرسي تحته قبل أن ينهض فجأة:
- كم الساعة الآن؟ هل تعلم؟

نظر السائق بساعته وأجاب:

- الخامسة والنصف، أين تسرع؟ سيأتي الآخرون بعد قليل فهم ليسوا من محبي النوم.
- نسيت شيئاً ما. أجاب فراتف وغادر المنشأة بسرعة.

ما تزال كلمات زميل راتشوف ترن في أذنيه وتعذبه. عديدة هي الأشياء التي صادفها خلال الساعات الإثنتي عشرة الماضية بحيث جعلته مشوش الأفكار تماماً .توقف بضع دقائق أمام الباب الخارجي للمنشأة قبل أن يقرر التوجه إلى المسقى .

لم يكن لدى كاتسا وقت دوام محدد لذلك كانت أبواب الحانة مفتوحةً ليلاً نهاراً، في طريقه لاحظ مصباحاً كهربائياً عالياً يضيء جميع البراكات حول المسقى ، مما يجعل المكان أشبه ما يكون بالنهار. حتى وقت قريب كان كاتسا يحضر الراكيا كل صباح وبما أنه لم يكن مسموحاً للحمالين والحطابين أن يقضوا الاستراحة الصباحية عنده، ولم يكن مسموحاً له تقديم الكحول صباحاً لهم صار يستبدل الراكيا بالشاي القوي. في البداية وبعد هذا المنع لم يدخل أحداً منهم إلى الحانة مما أضطره لسكب الشاي على الثلج، لكن فيما بعد تعودوا على شرب الشاي وصار فراتف يسمعهم يقولون:

"شربت هذا الفجر كأس شاي ساخن عند كاتسا فصرت أشعر أنني أفضل."

عندما اقترب فراتف من المسقى رأى فيلا مع شاب طويل وجميل بشاربين، يرتدي سترة ويضع قبعة جلدية على رأسه. كان الاثنان يمسكان بأيدي بعضهما من وقت لآخر، ويحدقان أحدهما بالآخر .بعد ذلك ضحكا بصوت مرتفع وتركا بعضهما. عاد الفتى راكضاً بينما تقدمت الفتاة نحو المسقى .

- هل هذا هو زميلك؟ سأل فراتف ابنته عندما أصبح قبالتها .
- إنه هو, هل أعجبك ؟ ابتسمت فيلا.
- أعجبني، يبدو فتى طيباً.
- لو لم يكن طيباً لما أتيت إلى هذا البلقان.

أجابت الفتاة ودخلت المسقى وهي تقفز بينما بقي فراتف في الخارج.

لم يكن الفتى سيئاً، التفت حوله وانطلق نحو مركز الشحن، يبدو هناك الخط المعلق الهوائي كأفعى ملتوية. يحمل شحنات ثقيلة في الهواء وعندما تصل الشحنات إلى المركز تبدو وكأنها مروحية تحط بحمولتها الثقيلة.

أما أفكار فراتف فقد تصدرتها اللوحة الكبيرة المرسومة على جدار حانة كاتسا، بدا له مضحكاً أن الرسام لم يتقن رسمها كما يجب، فبدت وكأنها تحكي عن موضوع آخر تماماً. هنا في هذه البقعة من العالم توجد الآمال والتطلعات نحو المستقبل و الإنذار المبطن والهلع الذي يحرك الغابة ويجعلها تلين. وهذا كله غير موجود في اللوحة، كل شيء فيها باهت وغير حقيقي، " لا شك أن يديه مشلولتان." شعر فراتف بالامتعاض من الفنان الفاشل وأسرع خطاه على الطريق المتجمدة.

لم يكن مركز التحميل يبعد أكثر من ميل واحد عن التقاطع الذي وصل إليه فراتف ، لو أراد لذهب بشاحنة ما لكنه فضل المشي كي يشعر بهواء الجبال ومناظرها الخلابة، أثناء سفره بالشاحنة كانت الجبال الجميلة تركض بجنون أمام عينيه، ولم يكن بمقدوره رؤية كل شيء رغم بطء الشاحنات.

أحب فراتف هذا البلقان الذي لم يطأه بشر من قبل، كان يعشق هذه الجبال ولا يستطيع الابتعاد عنها، تجذبه شتاآت تلك القمم المكتسية بالبياض كما العجائز، وكذلك الأشجار العارية التي تهزها الرياح، والدروب المجلدة ونسائم الصباح المنعشة ببرودتها. أما صيفاً فكان الهواء الكريستالي النقي يشعره بالانتعاش وهو يجتاز الجبال الخضراء التي تبدو كلوحات فنية رائعة الرسم تتخللها أصوات الطيور البرية الغردة. انفطر قلبه لاثنين، انفعل، وهام يتعثر بغصن شجرة هو أكثر الناس قدرة على رؤيته.

لم يعر اليوم اهتماماً كبيراً بالجبال لانشغاله، أفكاره المشغولة بفيلا حاصرته في مكان ضيق فشعر وكأنه احتسى الشراب طوال الليل، ذهنه الهائم ترك هذه الأرض الممتدة أمامه وكأنه محمول على عربة متقدمة للخط الهوائي .أصبح أكثر ذكاءً وعمقاً شعر بإحساسٍ قوي غير معروف يغمره بعنف.

بالنسبة لماريا لم يرد أن تعرف شيئاً إلى أن تصبح الأمور تحت الأمر الواقع، هي المرأة التي تخطط قبله للزمن، هي التي تذكره أن الشيخوخة قد اقتربت وأن عليه أن يفكر بهذه الشيخوخة وهي التي تجعله يجمع المال من أجل البيت.

كانت حياته رتيبة تسير بلا هدف، رمادية بلا أفراح، لم يكن فيها تموج أومفاجآت، تدور برتابة بدون أي تغيير. البراكة فمركز الشحن وبالتأكيد الحانة، حتى اليوم الذي التقى فيه بماريا لم يدرك أن حياته قد تتغير. وعندما بدأ حياته مع ماريا ظن أنها قد تلد له وريثاً لكنه سرعان ما أدرك أن أحلامه بوريث راحت أدراج الرياح . كانت ماريا مريضة بالبيرتونيت وهو مرض يمنعها من الحمل ، مما سبب له صدمة نفسية كبيرة، وهكذا تقدم بالعمر وأيقن باستحالة تحقيق هذا الأمل. أما الآن فيشعر بالرضا بهذه المصادفة. لكن فراتف تأمل بخوف وكأن خطراً ما يحدق به . إذا

عرفت فيلا أنه الشخص الذي تبحث عنه في المشاريع عبر البلاد . كيف سيقف أمام عينيها ,كيف سينظر بوجهها:

"لن أتصل بها بعد الآن , سأراقبها من بعيد وسوف أسعدها." كان هذا قرار فراتف .

انعطف بحده نحو إلى اليمين وسار في الدرب الصاعد الضيق حتى وصل أمام مركز الشحن، حيث شاهد شاحنتين تهدران قرب الحمالين المحاطين بالدخان المحمل بالثلج وقد بدؤوا للتو بتنزيل الحمولات القادمة على خط النقل الهوائي على أكتافهم. وهناك على الرصيف العالي في الجهة اليمنى فوق حمل قديم مرتفع يتمدد جاره مونيو وقد رفع ياقة قبعته الجلدية السوداء للأعلى. عندما لاحظ وجوده بدأ يقهقه وهو يلوح بيديه المختفيتين في قفازين أخضرين .

- انظروا إليه لقد جاء (جاءت كلماته كالسياط المنهمرة) أراهن أنه ذهب إلى كاتسا كي يكحل عينيه برؤية النادلة الجديدة إذا لم يكن ذلك صحيحاً فأنا لست مونيو.

توقف فراتف مصعوقاً في مكانه وهو يفكر ماذا مسَّ مونيو، هل هو مجنون ؟ أم سكران ؟

التفت الحمالون - الذين يحملون الأشجار على أكتافهم - بأنظارهم نحو الخلف باستهزاء , واقيات آذانهم كانت متدليةً للخلف ومن أفواههم تنبعث الأبخرة الدافئة وتنتشر بقوة في الهواء. ومن الغابة القريبة تسمع طقطقة الأشجار المرتجفة.

نظر فراتف وزمجر :

- توقف عن هذا وإلا سحبتك للأسفل .
- ولماذا أتوقف ! أليس كلامي صحيحاً , لقد رأيتك البارحة، (كرر مونيو هتافه وتابع:) كانت عيناك تحدقان فيها حتى كادتا تخرجان من وجهك ! إنها تستحق ذلك في الحقيقة , فنهديها يشبهان قمم الجبال. (أضاف مونيو ذلك وهو يرمق الآخرين بعينيه .)

هجم فراتف عليه وأمسك بقدميه المتدليتين وسحبه من مكانه العالي ورماه بقوة جانباً, فطار مونيو كعصفور وسقط على الأرض بين الشاحنتين بينما بدأ صراخ الحمالين :

- هيه ماذا تفعل؟ ستقتل الرجل!
- يستحق ذلك. أجابهم فراتف بعينين فيهما شرر :

مر الزمن الذي كانت فيه كل امرأة يقابلها تصب النار في عينيه. مشاعر أخرى تغمره اليوم، ولا يجوز لأحد أن يمزح معه.

نهض مونيو ببطء وهو يمسح أنفه الدامي.

- وأنت ألا تفهم المزاح؟ عاتبه مونيو وقد شعر بالإهانة.
- وأنت لا تدسَّ أنفك فيما لا يعنيك.

أجابه فراتف وهو يشعر بالذنب وأدرك أنه لا يعرف ماذا يتصرف فهتف بصوت عالٍ:

- هيا فليعد كل إلى عمله، لن نبقى واقفين هنا طوال اليوم !!!

أراد أن يكون طيباً بعد أن أعتذر عن تصرفه الفظ مع مونيو, ابنته سوف تتزوج قريباً وهو يتصرف كشخصٍ أرعن.

لم يعد فراتف يتصرف كعادته. يعود من العمل, يغتسل بشكلٍ جيد, يرتدي سترته القطنية الجديدة ويخرج فوراً من البيت ويذهب إلى المسقى. بقي لديه أربع ليفات وعشرة ستوتنكات وزعها بحيث تبقى معه أطول فترةٍ ممكنة.

طلب كأس نبيذ واحدة فقط بدون أية مقبلات وبدأ يحتسيها ببطء شديد على رشفات كي يتمكن من البقاء لفترة أطول, جلست فيلا معه على الطاولة كثيراً وتحدث الاثنان بإيجاز, يسألها فراتف بخبث, وتحكي الفتاة كل شيء عن نفسها هامسةً بأذنه. بهذه الطريقة فهم أن أمها عملت في "سيلكوبا" في "خليا بوفو" حيث كان زوجها الثاني يعمل لصالح شركة "O.K.C" مسؤولاً عن تلك المنطقة، كان رجلاً طيباً يتعامل بشكلٍ حسن مع فيلا وقد تبناها وهي لا تزال طفلةً صغيرة. وعاشوا في بيت جديد وجميل في مركز مدينة "خليا بوفو" أما جدتها فيلا فتوفيت قبل ثمان سنوات وهي جالسة أمام الموقد.

فاجأته ذات مساء بسؤالها، لماذا يدعى "تسوتشو."

لأول مرة تسمع بهذا الإسم وقد بدا لها طريفاً جداً. انتفض فراتف, اعتبر في البداية أن في الأمر سر لكنه هدأ بسرعة لأنه في الحقيقة يدعى يوردان و تسوتشو هو تصغير لإسمه وكثيرون يستخدمون الأسماء بصيغة التصغير.

ذات مرة وقبل ثلاثة عشر عاما سكب زيتاً من علبة كونسروة على زميلٍ له فنهض قائلاً:

" أنت فعلاً تسوتشو ...انظر ماذا فعلت ببنطالي! " ومنذ ذلك الحين يناديه الناس تسوتشو.

- تسأليننني لماذا أدعى تسوتشو.....

ركز فراتف نظره بابنته وهي تصغي باهتمام كي لا تغيب عنها كلمة واحدة فأسرع يشرح لها :

- سوف أقول لك، كان اسم جدي هكذا, كان من مدينة "باتاك" وعندما انتصر عليهم الأتراك ذبح زوجته كي لا يغتصبونها.
- لكنه لا يدعى تسوتشو بل كوتشو، لقد سمعت عنه. قالت فيلا.

أحرج فراتف لكنه لم يعترف بل أجاب :

- وقد يكون ذلك صحيحاً لكنني سميت باسمه. قالت لي جدتي ذات مرة: " من أجل حرف واحد لن نختلف على الاسم كوتشو أو تسوتشو ." أنت سميت باسم جدتك وأنا سميت باسم جدتي.

- كانت جدتي امرأة غريبة, عيناها لم ترفا أمام أي شيء خلال انتفاضة أيلول.

وحكت بالتفصيل ماذا فعلت جدتها خلال انتفاضة أيلول. كان فراتف يعرف ذلك أكثر منها, لكن الأمر يروى الآن حسب فهم ووعي الفتاة ما يجعلها تبدو أكثر وضوحاً و دراماتيكيةً.

- صحيح، تبدو جدتك في الحقيقة امرأة قوية, أرجو أن تصبحي مثلها .
- ربما، (ضحكت الفتاة) ولكن قد لا أصبح بطلة, إذ لا يوجد الآن حروب أو انتفاضات, هل أناضل ضد الكؤوس؟
- آه, لا تقولي لي ذلك, في كل وقتٍ يوجد ما يناضل المرء من أجله, يكفي أن يكون ذكياً وأن يعرف ماذا يفعل.

ناداها كاتسا من المطبخ وبذلك انقطع الحوار بينهما.

أما رضا فراتف عن ابنته فكان يزداد أكثر فأكثر, كانت ذكيةً وتعرف كثيراً وتعجبه.

يتضح الأمر أكثر مع الوقت أنها ترتاح له، أما هو فازداد إخلاصاً لها، لم ترف عيناه عن ذاك المشروب الملعون المحفز لعنف لا يستطيع تجاوزه. لو كانت أمها قوية وتملك خبرة زوجته الحالية ماريا لم يكن ليشتم رائحة الحانة, ولكن ...

دخلت فيلا تفكيره فسحرت أفكاره وغيرت طريقة حياته كلها، شعر بسعادة غامره حين علم أن دمه يجري في عروق فيلا وأن هذه الدماء سوف تستمر في أطفالها وأحفادها وأحفاد أحفادها. وهذا يعني أن نسله سوف يعيش ولن يموت كما كان يظن سابقا، لأنه نسي أن زوجته كانت حاملاً، ولم يظن أنه سيولد له ولد في يوم ما، فأيقن أن عرق آل فراتوف سينتهي معه لأنه ليس ماريا فقط بل تلك الأخرى التي هربت مع اللص لا يمكن أن تلد أيضاً.

- إه , أمه قديمه. (شتم فراتف بسره وتابع حديثه لنفسه) كان علي أن ألتقي بـفيلا من قبل ولكن ليس لي حظ , سوف نعيش الآن كالغرباء وذلك بسبب سذاجتي وغبائي.

شرب هذا المساء حتى آخر نقطة كأس الليمونادة الذي طلبه وأسرع نحو بيته. شعر أن روحه منيرة وأراد أن يبقى وحيداً مع أفكاره الجميلة عن طفلته.

في اليوم السابق لعيد الطريفون وحوالي الساعة الرابعة عصراً وعندما كان فراتف متجهاً نحو منزله لدقيقة من الزمن تكفي لتغيير ملابسه دخل إلى المسقى مرة أخرى فلاحظ فيها كاتسا يفتح صندوقاً كبيراً.

أقترب فراتف وسأله :

- ماذا لديك هنا أيضاً يا كاتسا ؟
- إنه راديو , اشتريته من السوق أريد أن أجربه ثانيةً. أجابه كاتسا دون أن يرفع رأسه .
- أليس لديك راديو؟ لماذا تحتاج لآخر، هل ستدير لنا مذياعين في آن معاً؟
- ليس من السيئ تغيير هذا الصندوق الخربان الذي يسمعنا الآن الموسيقى، (رمقه كاتسا بطرف عينه وأردف:) هذا ليس من أجل هذا المكان، إنه لنادلتي الجديدة، لفيلا، سوف

تتزوج يوم بعد غد، لقد قررنا مع العروس أن أهديها راديو بالرغم من راديو آخر سوف يصرخ فوق رؤوسهم.

أشتى فراتف ونسي أن ابنته سوف تتزوج في عيد الطريفون.

- ماذا جرى لك ؟ (سأل كاتسا) تبدو شاحباً.
- كل شيء طبيعي . (أجاب فراتف ولوح بيده سائلاً:) أين فيلا؟ لا أراها اليوم !
- حررتها لتهتم بشؤونها ولماذا أزعجها ؟ لماذا تهتم أنت بها ؟
- وتسأل لماذا ؟! يخطر ببالي إهداؤها شيئاً ما وأريد أن أسألها عما تحتاجه .
- ماذا ستسألها ؟

رفع كاتسا الراديو من الصندوق وبدت شاشته تلمع كالمرآة .

- سيعجبها ما تشتريه لها. إنها ليست متعجرفة .يكفي أن تكون الهدية من القلب.
- أنت محق . (قال فراتف وانطلق مغادراً .)

بدأ للتو التفكير بالهدية, وأعجبه الأمر. إنها ابنته. إذا لم يهبها هو هدية العرس فمن يهبها إذن ؟ها هو كاتسا , ليس قريباً لفيلا وقد اشترى راديو غالي الثمن هديةً لها !

ذهب فراتف إلى الحانوت الشامل ليرى ماذا يباع هناك. في إحدى الجهات كانت مرتبة سلع بقالية وفي الأخرى وضعت أجهزة كهربائية وبعض المنتجات الصناعية وأفران غاز .نظر متأملاً يحسب أيها الأكثر مناسبة لابنته .

سأل عن الأسعار بالتفصيل ثم قرر شراء ماكينة خياطة يدوية. ستكون ماكينة الخياطة هامة جداً لامرأة شابة. تفحص ماكينة وجربها.

لم تكن ماريا موجودة في البيت. فتش في خزانة الشراشف. كانت زوجته تجمع هناك مبلغ القسط المصرفي قرب دفتر التوفير. بعثر جميع الموجودات دون العثور على النقود أو الدفتر. ظن أنه لم ير جيداً فأعاد البحث داخل الشراشف والخوف يداهمه بأن السوبر ماركت قد يغلق أبوابه قل العودة بالمال لشراء الهدية .

- ماذا تفعل هناك ؟ صرخ صوت خشن وقاسٍ.

نظر إلى الخلف ليرى زوجته عند الباب .

- كانت النقود هنا. لا أستطيع العثور عليها . أجاب فراتف .

قربت ماريا وجهها .

- لا يوجد أية نقود. أودعتها جميعاً في المصرف. (أجابت ماريا ببرود , تفحصت البياضات المنكوشة ورفعت صوتها بوجه فراتف.) من سمح لك أن تنكش البياضات هكذا ؟ انظر لقد رميت جميع ملابسنا النظيفة على الأرض القذرة !

لم يسمعها فراتف , كان يفكر بماكينة الخياطة.

- يوجد لدينا نقود لقد استلمنا راتبينا مؤخراً. هات خمساً وثمانين ليفا قبل أن يغلق السوق أبوابه.
- خمس وثمانون ليفا ؟ (نظرت امرأته بوجهه متعجبةً) هل أنت مجنون ؟ لماذا تريد هذا المبلغ الكبير؟
- أحتاجه لأمر ما. (اقترب فراتف منها وتابع) هيا, بسرعة قبل أن أقرف رقبتك.
- ستقرف رقبتي ؟ (رفعت ماريا قبضتيها) اخرس واخرج من البيت قبل أن أنتف لك ريشك. (تراجعت للخلف وفتحت الباب) اخرج فوراً من هنا , عندما أذكر أفعالك تصبح أسود اللون بعيني !

خرج فراتف خانعاً, لا يجرؤ على طلب النقود ثانيةً , كانت زوجته قد قويت عليه خلال العامين السابقين. لها السلطة التامة عليه وهو يخاف منها دون مقدرة على فهم كيفية قدرتها على استلام مقاليد الأمور.

فات الوقت. لم تتحقق الآمال وبليونة غاصت في الوحل نصف المتجمد .

كانت القرية تتجمع في وادٍ صغير والطقس فيها أكثر دفئاً من القرى المجاورة.

ينبعث ضوء من نافذة جاره مونيو وظل رأس مونيو يبدو على ستارة النافذة المسدلة كرأس مارد ضخم , كلبه في مقره. برم نظراته الحادة نحوه. رغب باستدانة ثمن ماكينة الخياطة منه، لكنه تذكر ما حصل بينهما في مركز الشحن فغير رأيه.

لم يعد مونيو يهتم كالسابق لأمره, كان غاضباً منه فاحتار ماذا يفعل. توجه إلى الحانة. في جيبه ثمانون ستوتينكة. تكفي لشراء قدحين من راكيا الفواكه.

المسقى ممتلئ بالناس والدخان، الصخب مرتفع، أما كيف يستطيع هؤلاء الحمالين فهم حديثهم في هذا الضجيج العالي فهذا شأنهم. بحث فراتف عن مكان فارغ ليجلس فيه فلم يجد فاستدار واتجه نحو المخرج .لكن كاتسا مر بقربه ونقره بكوعه:

- انظر هناك, سيرحلون الآن ويفرغون مكانهم . لقد دفعوا حسابهم للتو .

كانت الطاولة قرب الجدار الذي رسمت عليه لوحة الخط الهوائي فتلهى بالنظر في الصورة التي تشبهه.

" سأقول لفيلا بأن هذه الصورة صورتي وقد رسموني هنا. "

انتظر طويلاً حتى ذهب هؤلاء الذين دفعوا حسابهم وبتثاقل جلس على الكرسي .

كان يائساً يشعر بالمرض لعدم تمكنه من شراء الهدية لفيلا.

"تلك التي تبخل بالنقود وتخفيها، أرجو أن تموت."

جاء كاتسا بسرعة وجلس قبالته

- هل اشتريت شيئاً لفيلا ؟
- كيف أشتري ولا يعطوني نقوداً !؟
- من ؟ ماريا ؟
- نعم هي . لقد غسلتني من الأعلى إلى الأسفل.
- هكذا إذن ....." من يثنِّي الزواج يتحمل عواقبه!" تمتم الخمار متفلسفاً.

نظر فراتف حوله وقال لنفسه:

"جميل أنهم لا يعرفون هنا أن ماريا ثالثة وليست ثانية."

- وماذا تفكر أن تشتري ؟ سأل كاتسا بعد لحظات .
- ماكينة خياطة .

نظر كاتسا بعيني ثعلب ثم رفع رأسه .

- هدية جميلة ومناسبة جداً لامرأة شابة. لو فطنت في البداية لكنت قد اشتريتها لها بدلاً من الراديو .

تلفت فراتف وخطر بباله أن يستدين المبلغ من كاتسا . إنه مدهن وبسهولة يمكن تسديد الدين له. يطلب أحياناً المساعدة، وفراتف يساعده كثيراً، سيعمل معه إذن ليسدد الدين ولن تلحظ فيلا السر أبداً.

- كاتسا . نـَاسَ صوته فجأة .
- ماذا تريد ؟ أدار كاتسا رقبته الغليظة.
- أعطني خمساً وثمانين ليفا ديناً كي أشتري ماكينة خياطة لفيلا .

تراجع الخمار بكرسيه للخلف وقال :

- لا تسألني عن النقود . (أحمر وجهه وتراجع ثانيةً للخلف) أنا لا أديِّن أحداً.
- سوف أعيدها لك . لن أخذلك .
- أعرف .
- أنا بالنسبة لفيلا .....
- قد تكون من أجل فيلا . لا أدفع ..... هكذا أنا .....

وخلال ثوان اختفى في المطبخ خلف ستارة الباب.

بقي فراتف وحيداً , ما تزال سحب دخان السجائر الرمادية للزبائن الذين وصلوا قبل قليل ترتفع وتحجب السقف. فتش فراتف بعينيه عساه يرى فيلا. لكنه تذكر أنها غير موجودة فنهض وخرج. كان الليل قد خيم على القرية أما هو فقد فتش كثيراً حتى وجد طريق منزله.

كان هناك الكثير من الهدايا التي أدخلت السعادة إلى قلب كاتسا.

- انظر كم هي كثيرة الهدايا التي تجمعت. (قال الخمار في الليلة التالية عندما زاره فراتف) عدا الراديو رأى مكنسة كهربائية وغسالة وبطانيتين سميكتين وفرناً كهربائياً وأشياء أُخرى .

- كل هذا لأن الفتاة طيبة . (تابع كاتسا) أنا أعامل الطيبين بكل طيبة. ماذا أقول لك؟ إنني أشعر بسعادة من يزوج ابنته الحقيقية.

نظر فراتف بحسد وقلبه ينقبض. فهو الأب وفيلا ابنته التي تتزوج أمامه ولا يستطيع تقديم أي شيء لمساعدتها أو حتى البوح بسره لأحد. أحس بالمرض يداهمه. طلب قدح راكيا الفواكه وتجرعه دفعة واحدة وخرج.

شعر بالذل ، وأنه ليس أكثر من محتال، "يا لي من محتال، أنا محتال**!**" (قال لنفسه) لو لم أكن كذلك لما طلقت أمها، لكنا عشنا حياة سعيدة. ولكنت الآن أزوج ابنتي بدلاً من كاتسا الذي لا يجمعه بها أي شيء سوى كونها مجرد عاملة لديه وتساعده.

بينما كان عائداً وحيداً حائراً فكر بالذهاب إلى ابنته وتعريفها بنفسه , ولو كانت النتيجة البصاق عليه. فكر بحزم:

" وماذا بعد ؟ إنها ابنتي، سوف أعذرها إن بصقت، فقلبها يكاد يحترق**!**"

جاءت هذه الأفكار ملائمة ومريحة، بعثت فيه الأمل من جديد فتوقف وعاد نحو براكة الفتاة . عندما اقترب توقف وفتش بعينيه يميناً ويساراً ظناً منه أن أحداً ما يتعقبه، لم يلحظ حوله أي كائن حي. براكة الشابين منارة و الستائر الزرقاء واضحة المعالم ومميزة عن غيرها من الستائر وهذا أمر طيب. زفر بقوة و تلفت حواليه مجدداً ثم تقدم بحذر من النافذة المنارة للشابين . أراد التأكد من وجودهما وماذا يفعلان بالرغم من دلالة وجودهما بالإنارة الظاهرة في المنزل فقد يتحدثان بصوت واضح **!**

كانت الستارة المتوسطة مفتوحة قليلاً في المنتصف مما سمح به برؤية الغرفة من الداخل. يوجد سرير عند الزاوية, خزانة بنية اللون , مدفأة عالية من الصفيح وعبر بوابتها الصغيرة ظهر لهب أصفر يتراقص، ثم شاهد طاولة صغيرة حولها كرسيين وأخيراً شاهد الشابين فيلا وراتشو مستلقيين قرب بعضهما يتحدثان بصوت منخفض .

خجل فراتف من تصرفه وعاد بلا هدى، الطين نصف المجلد يتكسر مصدراً ضجيجاً تحت أقدامه ، فتح باب من مكانٍ ما, ركضت خلفه إضاءة باهتة. لكنه لم يلتفت إلى الخلف, تابع ركضه ولم يتوقف حتى أصبحت القرية بكاملها خلف ظهره، وعندما تأكد أن لا أحد يتعقبه توقف يتلفت في كل الاتجاهات. لقد وصل إلى قرب السور الحجري للغابة .

البيت مظلم بكامله, عدا مصباح كهربائي واحد باهت النور يضيء المدخل وينير شجيرات الصنوبر البديعة في فسحة الدار.

- يا للشيطان **!** ماذا أصابني ؟

برم فراتف رأسه بغضب. قميصه ملتصق به, وعلى جفنيه قطرة عرق ثقيلة. ماذا يفعل وأين يدس نفسه, شعر أنه صغير بلا حول ولا قوة .

جسده منهار، لم يشعر بتجمده ، " يجب أن أهدأ وأعود إلى البيت , ستقلق ماريا عليّ " فكر بالعودة وكالمذعور نظر نحو الأنوار المتراقصة للقرية النائمة وسط الغابة، يعيش فيها منذ ست

سنوات، وهي المرة الأولى التي يمكث فيها في مكانٍ واحد مدة طويلة كهذه. أربع سنوات بسبب التعويضات العالية وسنتين بسبب ماريا. فلتذهب التعويضات إلى الشيطان وكذلك ماريا!

لم يحب أبداً الفوضى، يحب دوماً العيش بنقاء مع كل ما يحيط به ، وها هو يرتبك مع هذا الاكتشاف:

" نعم يجب أن أهدأ (كرر ذلك هامساً لنفسه) الوقت متأخر. "

وضع كفيه المتجمدتين في جيبي سترته القطنية وعاد راجعاً . الأرض قاسية وخشنة وكيراً ما تعثر عليها.

كانت ماريا مستلقية لكن المصباح مضيء .

- هيا نم كي تدفئني، أشعر ببردٍ قارس, كان الطقس دافئاً قليلاً نهاراً لكنه عاد شديد البرودة الآن . (قالت ماريا عندما شعرت به يدخل البراكة .)

توقف فراتف وسط الغرفة وحدق بها بتعجب، هل عاد لأجل زوجته أم لأجل شيء آخر. هل من الحسرة عليها لم يتابع سيره في الغابة نحو المدينة ؟ ولكن ....لا، ليس حسرة عليها بل خوفاً منها. هذه المرأة امتطته بحيث لم يعد بمقدوره فعل أي شيء. ألا يستطيع ؟

- لن أنام بعد الآن قربك (قال بصوتٍ مرتفع كي تسمعه بوضوح) منذ الآن فصاعداً .....

رفعت ماريا رأسها فوق اللحاف, تغير شكل وجهها، نظرت للأسفل وببرود قالت :

- أنا أوفر المال لكلينا . (كانت قد ذكرته ليلة الأمس بذلك) أنت تعرف هذا بشكلٍ جيدٍ جداً .
- أعرف . (أجاب فراتف) لذلك لا أتكلم عن هذا الآن. كنت بحاجةٍ ماسة للنقود مساء البارحة, احتجت النقود مرة واحدة ... وأنت .....
- ايه.... ايه.... ما هذا الحديث الفارغ، ولماذا كنت بحاجة نقود ؟
- وتسألين لماذا ؟ انظري.. . لن أقول لك .. هذا من شأني أنا فقط ولا يخصك أنتِ .
- هكذا إذن ؟ (نظرت ماريا بحدة) احتجت النقود لأمر شخصي إذن؟ نم إذاً وحيداً على المقعد كي تستقيم عليه عظامك الهرمة.....

وعادت للنوم راميةً اللحاف الزهري على رأسها .

نظف فراتف المقعد الخشبي وفتح خزانة الشراشف, ومد يده ليتناول شرشفاً فتذكر أن ماريا تملك ليرة ذهبية كبيرة بحجم ساعة اليد بقيت عندها من أثر زوجها المتوفى. لقد خبأت الليرة هنا في مكانٍ ما في هذا الدرج, لم يخطر هذا بذهنه ليلة الأمس عندما كان يفتش على النقود .

فكر فراتف:

" يمكن لفيلا أن تصنع من الليرة خاتماً أو أية قلادة ذهبية تشاء. أفضل من ماكينة الخياطة، فهذا ذهب خالص , والذهب يصلح لكل شيء لشراء تلفزيون أو ماكينة الخياطة , المهم أن تملكه !؟؟

كانت ماريا ما تزال مستلقية دون حراك واللحاف يغطي رأسها. فتح فراتف دون ضجيج الدرج المجاور ومد يده تحت الأشياء المطوية حتى لمست أصابعه صرة صغيرة، وضعت زوجته فيها القطعة الذهبية مع زرين فضيين لأكمام قميص رجالي كانتا لزوجها المتوفى. وضع الليرة الذهبية في جيبه وأعاد الصرة إلى مكانها. أطفأ المصباح الكهربائي وتمدد على المنديرة.

" سوف أعطيها غداً لفيلا " (فكر فراتف وهو يتوجه بنظره نحو زوجته) هذه القذرة سوف تجن عندما تعلم بفقدان الليرة الذهبية."

وضع القطعة النقدية تحت الوسادة وضغط برأسه عليها . فلتكن هنا ولن يستطيع أحداً الحصول عليها !!

عندما استيقظ كان الثلج يهطل فارشاً شراشف بيضاء على قمم الجبال الخضراء المحيطة بالقرية .

حك فراتف رأسه " ها هي تثلج ثانية ! " ثم تذكر الليرة الذهبية فوضعها في جيبه, لم يكن قد لمسها حتى الآن, لم يكن يحتاجها, ذرت الرياح نقوده فكان يذهب خالي الجيوب لكنه لم يهتم لما يحدث له. والآن أخذها لأنها ضرورية له، وابنته بحاجة ماسة إليها. لديه دليل قوي لهذه الضرورة فقد قالت له ماريا يوماً أن زوجها الأول قد أعطاها الليرة الذهبية لتدخرها من أجل ابنتها الموعودة, كان يجب أن تكون له ابنة منها، لكن هذا لم يحدث . " أما أنا فلدي ابنة (قال ذلك برضا وضحك فرحاً بخبث) في الواقع جاءت فيلا في مكانٍ ابنة ماريا . وهذا يعني أن الليرة ستذهب للبديل المناسب. "

حدق فراتف عبر النافذة، ما تزال القرية الصغيرة نائمة. اليوم الأحد والناس لا يستعجلون النهوض، وصل من الشمال صوت زغاريد ممزوج بهدير محركات سيارات شاحنة وبدأ فراتف يرتجف. المعرسون جاهزون إذن للانطلاق إلى سكوبي حيث يريد فيلا وراتشو عقد قرانهما المدني .

رمى سترته على كتفه وانطلق كالمشغول نحو الباب.

- أشعل الموقد أولاً قبل أن تخرج. رفعت ماريا صوتها.

التفت إلى الخلف ونظر إليها , كان قد نسي وجودها, شعرها المنفوش جعلها أشبه ما تكون بالساحرة .

- وأنتِ تستطيعين إيقاده أيضاً. قال ذلك بحدة وخرج ووقف أمام البراكة.

كان كلب مونيو ينظر بعيداً ويتسلى بندف الثلج، يحاول جاهداً عضها أو ابتلاعها وكأنها ذباب .

" يحب اللعب " فكر فراتف وحاول الإصغاء للزغاريد لكنه لم يعد يسمع شيئاً. القرية غارقة في الصمت وكأنها خالية من البشر. التفت يميناً وشمالاً ثم توجه نحو براكة فيلا. شيء ما يحقِرِه، ابنته سوف تتزوج وها هو يقف كالعمود الخشبي لا يعرف ماذا يفعل. كان قد طلب منه كاتسا أن يكون في الحانة عند الظهر. لكن هذه الدعوة لم تقنعه. أراد فيلا أن تدعوه بنفسها. أن تكون هذه الكلمات من فيلا لكنها لم تظهر لا نهار الأمس ولا مساءه. فهل يستطيع تقبل هذه الفرحة الكبيرة .

المكان أمام البراكة فارغاً وستائر النوافذ مرفوعة. وعلى الثلج أمام البراكة آثار أقدام لا تحصى. جليد الشارع الضيق كسرته عجلات الشاحنات، وما يزال بعض آثارها ماثلاً بين آثار الأقدام البشرية المغطاة بطبقة من الثلج النظيف ، لا يوجد سوى آثار جديدة لأقدامه المتجهة نحو مركز الغابة " لقد غادروا " تمتم ضجراً فراتف. جال في ذهنه أن يلطم رأسه اليابس الذي قاده إلى هذه الحال لكن الأوان قد فات .

- ربما تأخرت ! صوت ما من الخلف جاءه

التفت فراتف للخلف فرأى زميل راتشو الذي كان قد تحادث معه في مبنى المراقبة.

- إلى أين تأخرت ؟ (تجاهل فراتف موضوع السؤال) مررت مصادفة ولاحظت الثلج وقد داسته أقدام عديدة وعجلات سيارت ربما توقفت هنا . وأتساءل ما الأمر.
- صديقنا راتشوف يتزوج اليوم . إنه الشخص الذي سألتني عنه ذات يوم . (شرح السائق الأمر وهو يفرك أنفه الأحمر من أثر الصقيع) – نزلوا بثلاث شاحنات . ربما وصلوا الآن .
- وأنت لماذا لست معهم ؟ سأل فراتف وهو يشعر بالسوء.
- أنا من إدارة المضافة ومسؤول عن القربان (ضحك) إذا لم تكن مشغولاً وأردت مساعدة الشابين هيّا إلى الكراج . ستكون الوليمة هناك.
- - ألن تكون عند كاتسا؟! "تعجب فراتف"
- المكان ضيق هناك ولا يتسع لنصف السائقين فكيف بباقي الناس .
- الكراج بارد. (قال فراتف) - لا يمكننا ربط كلب فيه .

ضحك الفتى

- لا تناقش ! إنه دافئ كالحمام . برميلان تشتعل فيهما النيران هكذا بحيث لا تستطيع الاقتراب منهما, تعال لترى بعينيك.

أسرع فراتف يقوده إلى الكراج حيث يجب أن يكونوا درب ضيق وسط ثلج الطريق.

إحدى البوابات نصف مفتوحةٍ, دخل عبرها، فوجد سفرة ممدودة على طول الكراج وعلى جانبيها رتبت مقاعد خشبية. كما لاحظ برميلين كبيرين في الميمنة والميسرة وقد صنعا على شكل مدفأتين والنار تهدر فيهما. عدد من النسوة ورجلٌ شيخ يضعون صحون الألمنيوم على الطاولة. في الحقيقة كان الجو دافئاً جداً داخل الكراج فعند دخوله شعر بموجة دفء على خديه الباردين. التفت هنا وهناك، لم ير وجهاً مألوفاً فخرج مسرعاً. وتوجه نحو مركز شحن الغابة وهو يتحدث مع نفسه، بالقرب من المركز تمر الطريق المؤدية إلى سكوبي، هناك على المفرق قرر فراتف الانتظار كي يكون أول مستقبلي موكب العرسان الراجعين.

استمر هطول الثلج بندف كبيرة جداً وكثيفة كخرق القماش،الهطول ساكن، وكأن هناك عدداً كبيراً من الألياف الخيطية تنسج غطاء أبيض تكسو به الأرض فوراً.

بدأت الحياة تدب في القرية، يسير الناس على طرقاتها في كل الاتجاهات، هناك رجل يرتدي معطفاً أخضر اللون يجر وراءه بعض الأغصان، يجري حوله طفل في حوالي السابعة من العمر وهو يلعب بكرات الثلج، ويهتف سعيداً. قبل البناء الحجري للحانوت الكبير انعطف فراتف يميناً نحو المسقى، ما يزال لا يصدق أن كاتسا قد وافق على قيام حفلة العرس في الكراج بدلاً من

المسقى، من بعيد لاحظ ورقة بيضاء وقد ألصقت على الزجاج الداخلي للباب، حدق بها وقرأ خط كاتسا المعوج :

" اليوم لا نعمل، من يريد العرس فليذهب إلى الكراج."

فتش فراتف بعينيه عبر الزجاج فرأى الوضع داخل الحانة على ما كان عليه بالأمس.

في مركز مراقبة الغابة لم يلحظ بشرياً ومن مداخن مبنى المقر الثلاثة كانت خيوط دخان دقيقة ما تزال تنبعث للأعلى. على جانب الطريق كان هناك كلب يجري، عرفه فراتف، إنه كلب مونيو يجر سلسلة رباطه المعدنية خلفه، عندما التفت وشاهد فراتف بدا مثل لص هارب فأسرع خطاه مبتعداً.

- هيا عد إلى البيت!

صرخ به فراتف هو يلوح بيده، لكن الكلب خفض ذيله للأسفل قليلاً وهو يلتفت نحو فراتف دون أن يغير وجهة سيره، بعد قليل انحرف في طريق جانبية واختفى خلف البراكات.

أراد فراتف الدخول إلى المركز لكنه غير رأيه كيلا يفقد موكب العرس.

الطريق الحجرية خالية، غابت آثار العجلات تحت الثلج المنهمر، نزل فراتف نحو النهاية السفلى للمبنى وهو يمشي على حرف الشارع، لكنه عاد ومشى وسط الطريق متجهاً دون هدى نحو القرية وهو يطأ المسالك السائلة من الثلج الذائب تارة ويعود ليسير على آثار أقدامه القديمة وسط الثلج تارة أخرى.

لم تكن لديه فكرة عن الوقت، لكنه ظن أن العروسين قد انتهيا من مراسم الزواج الرسمية في سكوبي وهما الآن في طرق العودة إلى القرية. تتم عقود القران هذه الأيام بسرعة فلا قساوسة بشمعدانات ولا تيجان تنكية أو شموع طويلة.

عندما كتب كتابه على ماريا لم يستغرق الأمر أكثر من عشرة دقائق، قالوا لهما ثلاث ، أربع كلمات حلوة، كيلا يكون الأمر بلا طعم، صافحوهما ثم : هيا إلى الخارج!

شعر فراتف بالقلق حول كيفية تمنياته لفيلا بحياة سعيدة وفرحة، وكيف سيهديها البارة الذهبية، لم يعرف كيف سيقوم بذلك! لكنه ظن أنهم عندما يجدونه وحيداً على الطريق إلى القرية سيوقفون سيارات الموكب ويأخذونه معهم إلى الكراج، عند ذلك سيتقدم من العروسين ويقول:

" أرجو لكما كل شيء رائع! فيلا، أرجو لكما أنت وراتشو الصحة والعافية وكثيراً من الحب يرافقكما، ولتلدا أطفالاً كثيرين، أما هذه البارة (وسوف يعطيها القطعة الذهبية) أعطيك إياها من القلب، قد تصنعين منها خاتماً إذا أردت."

المهم أن لا يرتبك ويفعل شيئاً سخيفاً.

خرج شخص من تعاونية الغابة، التفت نحوه ثم اتجه نحو القرية، كان يرتدي معطفاً قصيراً من فرو الغنم وعلى كتفه بندقية. عرفه فراتف فوراً، إنه حارس الغابة أنجل، رغب بمناداته كي يتحادثا معاً لكنه امتنع، إذ عليه أن يشرح سبب وجوده هنا وهذا ما لا يريده.

بعد قليل فكر بالعودة إلى الكراج وانتظارهم في مكان دافئ يوجد فيه المزيد من الناس، لكنه خشي كثيراً من كيفية تحيته لهم هناك، سيُربط لسانه ولن يستطيع التفوه بكلمة واحدة، وأيضاً، كيف سيقدم القطعة النقدية، ألن يراها الناس جميعاً! وهكذا ستسمع زوجته ماريا فتعرف كل شيء.

سمعت أصوات سيارات تقترب، عظم صوت هديرها، وسرعان ما ظهرت تتقدم نحوه على جليد الطريق المتكسر.

في البداية كانت تبدو صغيرة كالجعل، أما الآن فقد ظهرت كما هي في الحقيقة. دبت الحياة في فراتف، دخل أكثر باتجاه مركز شحن الغابة وبدأ يلوح بيديه بقوة للشاحنات، في المقدمة ظهرت سيارة سكودا كبيرة رمادية اللون مغطاة بالكامل بالثلج، مساحات الزجاج تعمل بصعوبة. شاهد فراتف بوضوح فيلا ترتدي برقعاً أبيض وإكليلاً تويجاً على رأسها وقد التصقت براتشو، حتى بؤبؤا عينيها كانا يشعان بالسعادة والفرحة، لكن هذا مر كله بلحظة واحدة.

زمجرت السيارات وعبرت قربه، من السيارة الثالثة فقط ظهر رأس من النافذة وصاح بصوت عال، قوي وسعيد:

- تسوتشو، تعال إلى الكراج، سنحتفل هناك.

إنه كاتسا، وجهه محمر ومدهن وكأنه قد انتهى للتو من تناول طعاماً مدهناً.

لم يتحرك فراتف من مكانه، بدا كل شيء وكأنه في حلم، أو ومضة سريعة ومضت ثم ضعفت فتلاشت. بقيت أمامه آثار عجلات الموكب فقط. بدأ يتمتم وقد خيم على رأسه حزن عميق، تدفق في رأسه راسب ما ، ثقيل وعكر، تجمعت واختلطت جميع الأفكار والظنون التي راودته حتى اللحظة،ماذا يريد؟ أن يقوموا بدعوته أم ينحنون أمامه أم يقبلون يديه؟ من أين إلى أين؟ وبأي حق؟

هل تذكر أنه في يوم ما كان قد انفصل عن زوجته الحامل، وأن هذه الزوجة ولدت، وأنها تعبت وشقيت وتحملت حال طفلتها الرضيعة، وأن أعصابها وصحتها قد تآكلتا وهي تربي طفلتها وتحميها لتكبر وتصبح زهرة جميلة؟

أما هو؟ فقد عرف أن فيلا لم تعره اهتمامها وهي تمر قربه كشخص غريب، وكأنه شيء غير موجود أبداً. من هو؟ وماذا فعل من أجلها؟

أحس بألم شديد في راحة كفه اليمنى،فتح قبضته، كانت القطعة الذهبية مطوية طبقتين في كفه المتعرقة.

غضب من حياته اللامعقولة والمحطمة فرمى القطعة الذهبية في خندق مجاور للطريق وهام إلى مكان ما، محطماً مما حصل له، زفر، بحزن وتوجه عبر السفح الموحل نحو سكوبي يشعر بعطش قاتل لزجاجة من النبيذ.

المترجم في سطور

- علي أحمد ناصر مهندس وكاتب ومترجم عن اللغتين البلغارية والانجليزية.
- كتب الشعر والمسرحية في اللغة البلغارية ورشح لاتحاد الكتاب البلغار عام 1985
- عضو اتحاد كتاب الانترنت العرب ينشر بالعربية والانجليزية ورقياً وعلى الشبكة العنكبوتية في الأدب والعلوم وغير ذلك.
- صدرت له الترجمات التالية:
  - (اثنا عشر زوجاً من العيون – المعلمة أويشي) رواية يابانية عن البلغارية.1995
  - سر الهارب من البوليس – نصوص وقصص للفتيان عن الانجليزية 1995
  - سميرة الصغيرة حكايات للأطفال – عن الانجليزية 2000 و 2005

- في فضاء الصمت – عن الانجليزية 2007
- في اللغة العربية:
  - كنة أبي غسان - قصص قصيرة 1991
  - سكرتيرة – قصص قصيرة 2005
  - ماري - قصص قصيرة 2006